

مفهوم الأدب الإسلامى

إن اللغة العربية من أغزر اللغات أدباً، وهى لغة ممتدة، ولا يقصر امتدادها على الخمسة عشر قرناً، بل إن امتدادها موصول ومتوال، ولم تنسحب عن المجال الأدبى، بيد أنه قد اعترها فى عهود متباينة ضعف لأسباب متغيرة، وأحوال طارئة، وكان الإسلام أقوى وارد على اللغة العربية وآدابها، وقد تلقاه الأدب وحمله، بل وكان به زعيماً، واحتمل مسئولية عرضه وتقديمه. فقد كان رسول الإسلام محمد - ﷺ - أكثر أهل هذه اللغة وآدابها قوة وإجادة، والسر فى ذلك تعدد منابع ثقافته، التى نفهمها من خلال الحوار الذى دار بينه وبين الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - حين جاءه وفد من (بنى همدان) وتحدث معهم، فقال له على - رضى الله عنه - : يا رسول الله، نحن بنو أب واحد وأم واحدة، ونراك تكلم الوفود بلهجات لا نعرف أكثرها. فقال له الرسول عليه السلام: أدبنى ربى، فأحسن تأديبى، بيد أنى من قريش، وربيت فى بنى سعد. وقريش وقبيلة بنى سعد من أفصح العرب.

الشعر الإسلامى

وعلى الرغم من أنه عليه السلام لم يقرض الشعر. قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾^(١).

إلا أنه كان مجيداً لفهم الشعر، ومتذوقاً لجماله ومحاسنه، واستمتع للشعراء،

(١) سورة يس، الآية ٦٩.

وأجازهم عليه، فقد روى أن رسول الله - ﷺ - كان قد أهدر دم (كعب بن زهير)، وبلغ كعباً ذلك؛ فصنع قصيدته الشهيرة، وهرع إلى نبي الإسلام، وقد دخل عليه مثلثاً، وقال له: يا رسول الله أتعرف كعباً؟ قال له: لا. فقال كعب: ما تفعل به لو جاءك معتذراً، أتعفو عنه؟ قال نبي الرحمة: أعفو عنه. وبذل له الأمان؛ فأماط كعب اللثام عن وجهه، وقال له: أنا كعب، ثم أنشده قائلاً:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متمم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ثم مدح الرسول عليه السلام بقوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ثم مدح الأنصار والمهاجرين، واعتذر للرسول عليه السلام، وطلب منه ألا يصدق قول الوشاة فيه فنراه يقول:

لا تأخذنّى بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرة فى الأقاويل

ثم نرى رسول الله عليه السلام يعطيه عباة مكافأة له وجائزة لشعره. وأراد معاوية بن أبى سفيان أن يشتريها منه، فتأبى عليه ذلك، ثم اشتراها من ورثته بعد موته بثلاثة آلاف درهم. والإسلام لم يكن ديناً مقصوراً على العبادات، بل إن الإسلام اتسع مثل اتساع الإنسان، وامتد مثل امتداد حياته، ولم يتعارض إلا مع ما يتعارض مع مصلحة الحياة الإنسانية ومع ذوقها الجميل، فالإسلام لا يعارض إلا أعمال الهدم والفساد والتخريب، والإخلال بما يكون بصالح الإنسان وإنسانيته، فالعمل الأدبى لم يجد صعوبة فى مسابقة الإسلام، وتحقيق أهدافه فى تصوير جوانب الحياة التى تتواءم مع الإسلام.

والخلاف بين الأدب الإسلامى وغيره من أجناس الأدب، ييجئ فى رعاية مصلحة الحياة الإنسانية وعدم رعايتها، حيث إن الأدب الإسلامى يرى مجالات

العمل فى الحياة والسكون، ويميز بين اللائق بإنسانية الإنسان، وغير اللائق بها، فهو أدب ملتزم فى هذا المعنى، ولكنه ملتزم بالمعنى الصالح، لا بالجمود والتصليد، أما الأدب غير الإسلامى، فهو لا يبالى بمجالات العمل فى الكون والحياة، ويدخل فى كل مكان، مثل البهيمة الهاملة، ترعى فيما تشاء ولا تفرق بين الصافى والعفن، والطيب والخبيث، ولا تبالى بالفرق بين المراعى الفائحة، والقاذورات النتنة.

الأدب الإسلامى لا يجب هتك العورات، ولا إثارة المزابل إلا فى نطاق هادف محدود. أما الأدب غير الإسلامى، فلا يبالى أين وقع؟ وماذا أفسد؟ بل إنه حيثما يجرد نفسه من الالتزام، يرى أحب مجالات عمله كل صورة مثيرة للعواطف، وكل معنى يغذى النزوات، مهما أتى به فى إثره من فساد وانهار، وهذا هو موضع الخلاف بين الأدب الإسلامى وغير الإسلامى.

الأدب يتلقى روحه وهدايته من الإسلام، ومن حياة نبي الإسلام، والأدب غير الإسلامى يتلقى روحه وإرشاده من هوى الإنسان، وحياة كل هائم من الحيوان. وليس صحيحاً أن الأدب بعد التزامه بالإسلام يصبح محدوداً وقاصراً، لأننا حينما نشطب جانب الفساد والقبح من الحياة، فالذى يبقى بعده فى الأدب هو واسع وكثير ومتنوع الجوانب، ومختلف الصور والأشكال، ولن يشعر الممارس له أى قصور فيه لقضاء حاجته من الأدب، بل إن ما يجده يخدمه فى كل ما يعينه فى حياته. فقد انتظم الأدب الإسلامى على الشعور بالألم والسرور، والسخط والرضا، والغضب واللطف، والبكاء والضحك، والكراهية والحب، والجد والمزاح، والشقاء واللذة، والعقل والوجدان والحكمة واللعب، كما يصور سلوك الصديق مع الصديق، وسلوك الرجل مع المرأة، كما يصور انفعال الرجل فى الأحداث وشعوره للعواطف، وتأثره بكل مؤثر، واستجابته لكل ظاهرة مسترعية للانتباه، وهو يشتمل على التاريخ والسيرة، والقصة والرسالة، والخطبة والحوار، والوصف والتصوير، وأيضاً يشتمل على التعبير المؤثر الجميل. وهو نثر سلس وشعر رائع، وصور زاهية للأسلوب الأدبى، وهو تصريح وعتاب، وتطريب وإمتاع، وبيان وإفهام.

إنه مرآة كلامية للحياة الإنسانية في أحوالها النفسية والسلوكية، بيد أنه يتجنب في كل ذلك القذارة والفساد، والدليل على ذلك سنة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - التي غطت جوانب الحياة بأسرها، ففيها شئون وشجون ذات اتصال بالأحوال الفردية، وبعلاقة الرجل مع زوجته، والصدّيق مع صديقه، والمواطن بجاره المواطن، والخصم بخصمه، والعدو مع عدوه، وفيها الحديث عن النفس والمجتمع والحياة.

هذه خامات الأدب الإنساني البليغ. وحيث الإسلام ينتظم كل ذلك، فالحديث البليغ عن كل هذه الأمور يستأهل أن يدعى أدبا، بل وأدبا عظيما، ولاصطبague بالصبغة الإسلامية، يستحق أن يسمى أدبا إسلامياً، لأنه أدب يمثل الحياة الإسلامية، أو هو إسلام يمثل الحياة.

ويمكنك التفريق بين النظرة الإسلامية والجاهلية للحياة، وسريانها في الأدب. ودلالاتها على اختلاف الأدب الإسلامي عن غيره، كى تتبين كلا الأدبين من هذه الكلمة السائرة في الجاهلية، وهى: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، فقد كان مفهومها الجاهلى نصرته، دون نظر إلى صواب عمله، أو خطئه، ورفض رسول الإسلام هذا المفهوم الفاسد، ونهى عن استخدامه، وأرشد إلى المفهوم الإسلامى، وهو نُصرة المسلم على أساس الحق، لا على أساس القرابة والنسب، وفسره عليه السلام لصحابته - رضى الله عنهم - بأن نصرة الظالم منعه من الظلم، وبذلك فرّق - عليه السلام - بين المفهوم الجاهلى للفظه، والمفهوم الإسلامى لها. ومثال آخر يدل على الشخصية الإسلامية للأدب في الحياة، هو بيت للشاعر المخضرم (النابغة الجعدي)، حيث يقول:

وإنا لقوم ما نُعوّد خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتُنْفَرَا
ونذكر يوم الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا

وليس بمعروف لنا أن نوردها
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا
صاحاً ولا مستكراً أن تُعقرا
وإننا لنرجو فوق ذلك مظهراً

وفي رواية عبد الله بن جراد:

علونا على طرّ العباد تكرماً
وإننا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فقال له النبي ﷺ: إلى أين يا أبا ليلى؟، فقال:

إلى الجنة! فقال: نعم إن شاء الله!.

ولا خير في حلم إذا لم تكن له
ولا خير في جهل إذا لم يكن له
بوادر تحمى صفوه أن يُكدرأ
حليم إذا ما أورد الأمر أصدرأ

فقال رسول الله ﷺ: لا يفضض الله فاك!... فكان من أحسن الناس ثغراً؛ وكان
إذا سقطت له ثنية نبتت، وكان فوه كالبدن المتهلل يتلأأ ويبرق^(١).

فصار بيت النابغة الأخير إسلامياً حينما اتفق مع النظرة الإسلامية من ناحية
الفهم والمعنى.

لقد ظهر هذا الاتجاه الأدبي السليم الملتزم لأول مرة في كلام الرسول عليه
السلام، وانتظم أصنافاً وأنواعاً أدبية متباينة من الكلام الأدبي، واتبعه في ذلك
الصحابه رضی الله عنهم، ثم الذين أتوا من بعدهم. وجاء الأدب مطوراً ومتنووعاً
على أيديهم، ملتزمين بالسمات السليمة والمقبوسة من المنهج القرآني للبيان الأدبي،
وبيان الرسول عليه السلام، وبذلك كان كل لون من الأدب الجاهلي يقابله لون من
الأدب الإسلامي. وكانت نظرة الإسلام إلى الأدب الجاهلي نظرة سديدة، فالأدب
الذي نأى عن الفحش والانحراف والفساد؛ أبقى عليه الإسلام ولم ينهه، أو يتجههم

(١) خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب للبغدادى، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون ج ٣ ص ١٦٩.
١٧٠ مكتبة الخانجي بالقاهرة.

في وجهه. وما خالف المعانى الإسلامية؛ لم يقبله، فكانت نظرتة إلى الأدب الجاهلى كنظرتة إلى الناس... منهم الأخيار، ومنهم الأشرار، قال ﷺ: الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا^(١). ولذا.. نجد الصحابة - رضى الله عنهم - عنوا بالشعر الجاهلى ليعينهم فى فهم معانى ألفاظ القرآن الكريم.

والدليل على ذلك... ما قاله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه: إذا استغلق عليكم شئ من معانى القرآن، فاطلبوه فى الشعر، فإنه عربى، ويروى أنه اجتمع ببعض أولاد "هرم بن سنان" الذى مدحه شاعر الجاهلية "زهير بن أبى سلمى"، فاستنشدهم "عمر بن الخطاب" بعض مدائح زهير فى أبيهم، فأنشدوه، فقال سيدنا عمر رضى الله عنه: "إن كان لا يحسن فيكم القول" قال بعض أولاد هرم: "ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء"، فقال عمر رضى الله عنه: "قد ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم"^(٢). وكذلك اجتمع عمر - رضى الله عنه - بالشاعر "متمم بن نويرة" واستنشدته رثاءه فى أخيه "مالك بن نويرة" الذى قتله خالد بن الوليد - رضى الله عنه - قائد الجيش الإسلامى، فأنشده قائلاً:

وكنا كندمانى جذية حقة
من الدهر حتى قيل لن يتصدع

فتأثر به عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقال: "لوددت أحسن الشعر، فأرثى أخى زيدا بمثل ما رثيت به أخاك"، فقال متمم: لو أن أخى مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته، فقال عمر: "ما عزانى أحد عن أخى بمثل ما عزانى به متمم" فهذه أدلة على أن الإسلام لم يطمس كل الأشعار الجاهلية ولم ينفها، إنما نفى وطمس الأدب الكاذب الفاسد الذى يحمل روح المجون والعبث واللغو وإذاعة الرذيلة ونشر الفواحش.. فمادامت للأدب حدود إسلامية تنبع مع المنهل العذب، والنبع الصافى (القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأدب الصحابة رضى الله عنهم) عاش

(١) صحيح مسلم.

(٢) مختار الأغاني لابن منظور جده بتصرف.

الأدب يؤدي دوره الملتزم بهذه الحدود الإسلامية. والإسلام لم يعارض الأدب، بيد أن ميزة الأدب الإسلامى هى خدمة الحياة بالإصلاح والبناء، وليس الجرى وراء تحقيق مآرب الحياة التافهة، وذلك بمساعدتها بوسائل العريضة، كما نجدتها فى الأدب الجاهلى... فالحرية فى الإسلام حرية مقيدة ومضبوطة بضوابط نابعة من القرآن والسنة، فلا يقبل الإسلام حرية فيها لذة واستمتاع لشخص على حساب شخص آخر، أو هدم لمبدأ، أو إفساد فى الأرض.

وكان رسول الله ﷺ يقدر الأدب النزيه، وجاء أدبه - عليه الصلاة والسلام - مثلاً لهذا الأدب، وانتظم ألواناً وضروباً منه. لقد كان ﷺ أبلغ الناس وأملكهم للفصاحة والبيان، فقد ولد فى قريش، وأرضع فى بنى سعد، وهما قبيلتان من أفصح القبائل العربية، وكذلك كان الصحابة يتناشدون أشعار الجاهلية وأخبارها.

قال (جابر بن سمرة): جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار بالمسجد، وأشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم رسول الله ﷺ^(١). وكان الرسول عليه السلام يستعذب بعض الشعر، وكثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر، ولو كان شعر أعدائه (كأمية بن أبى الصلت)، كما يقول (الشريد بن سويد الثقفى): استنشدنى النبى - عليه الصلاة والسلام - شعر (أمية بن أبى الصلت)، فأنشدته، وهو يقول: هيه، هيه، حتى بلغت مائة قافية^(٢).

كما أن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - استنشد أبا بكر - رضى الله عنه - شعر (حسان بن ثابت) يوم فتح مكة، وقد دخلها من (كداء)، وكان (حسان) قد هجا أبا سفيان، وبشر النبى ﷺ بفتح مكة، وأنه سيدخلها من هذا المكان، فلما تحقق

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموى، والمزهر للسيوطى، والشعر الجاهلى بين الرواية والتدوين للمؤلف ص ١٠٠ مطبعة الأمانة بالقاهرة.

(٢) الأدب المفرد للبخارى ص ١٢٧ وطبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ص ١٧ ط دار الباز بمكة المكرمة. والشعر الجاهلى بين الرواية والتدوين للمؤلف ص ٩٨ مطبعة الأمانة بالقاهرة. والأدب الإسلامى وصلته بالحياة، تأليف محمد الرابع الحسنى الندوى ص ٣٢ دار الصحوة بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

له ذلك؛ قال - عليه الصلاة والسلام - لأبى بكر - رضى الله عنه - أنشدنى بعض أبيات (حسان). ويعنى قوله:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء^(١)

وكان أبو بكر - رضى الله عنه - نسابة، راوية للشعر الجاهلى، وكثيراً ما كان يتمثل به فى خطبه، وليس أدل على ذلك من قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - للشاعر (حسان بن ثابت)، عندما قال له: كيف نهجوهم (يعنى قريشاً) وأنا منهم؟، فقال حسان: (يا رسول الله إنى أسلك منهم كما تسلك الشعرة من العجين)، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "عليك بأبى بكر، فإنه أعلم الناس بأنساب العرب". يقول الجاحظ: وكان أبو بكر - رحمه الله - أنسب هذه الأمة ثم عمر، ثم جبير بن مطعم، ثم سعيد بن المسيب، ثم محمد بن سعيد بن المسيب^(٢). وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لا يكاد يعرض له أمر، إلا أنشد فيه بيت شعر^(٣). وكان عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - عالماً بالشعر، متذوقاً له، ومناظرته لنافع بن الأزرق شهيرة معروفة، وهو الذى يقول: (الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب؛ رجعنا إلى ديوانها؛ فالتمسنا معرفة ذلك منه)، ثم أخرج عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال: إذا سألتمونى عن غريب القرآن، فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب^(٤). يقول نافع لابن عباس: أخبرنى عن قول الله تعالى: "عن اليمين وعن الشمال عزين". قال: العزون حلق الرقاق، قال: هل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم أما سمعت (عبيد بن الأبرص) وهو يقول:

(١) الديوان.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣١٨ تحقيق وشرح الشيخ عبد السلام هارون ط الخامسة سنة ١٤٠٥هـ، سنة ١٩٨٥م مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٣) طبقات بن سلام.

(٤) الإتيقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ٦ ط الجهاز المركزى سنة ١٣٩٧هـ.

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا^(١)

قال: فأخبرني عن قوله تعالى: "وابتغوا إليه الوسيلة" قال: الوسيلة الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنزة وهو يقول:

إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمُ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِنَّ يَأْخُذُوكَ تَكْحَلِي وَتَحْضَبِي^(٢)

قال: أخبرني عن قوله: "وريشاً". قال: الريش (المال). قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول:

فَرِشْنِي بِخَيْرِ طَالَمَا قَدْ بَرَيْتَنِي وَخَيْرُ الْمَوَالِي مِنْ يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي^(٣)

قال: أخبرني عن قوله تعالى: (وَقَوْمِهَا). قال: (الحنطة). قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت قول أبي محجن الثقفي:

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُنِي كَأَغْنَى وَاحِدٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ عَنْ زِرَاعَةِ قَوْمٍ^(٤)

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "والقمر إذا اتسق" قال: اتساقه اجتماعه.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول طرفة بن العبد:

وإِن لَّنَا قَلَائِصًا تَعَانِقَا مَسْتُوثَاتٍ لَمْ يَجِدْنَ سَائِقًا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "بالبأساء والضراء"، قال: البأساء (الخصب) والضراء (الجذب) قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول زيد بن عمرو:

إِنَّ إِلَهَ عَزِيزٍ وَاسِعٍ حَكَمٌ بِكَفِّهِ الضَّرُّ وَالْبَاسَاءُ وَالنَّعَمُ^(٥)

(١) ذاته ج ٩ ص ٢٠٦.

(٢) ذاته ص ٢٠٧.

(٣) ذاته.

(٤) ذاته ص ٢٠١.

(٥) ذاته ص ١٦٢.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "وأكدى"، قال: كده بمنه. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟، قال نعم. أما سمعت قول الشاعر:

أعطى قليلاً، ثم أكدى بمنه ومن ينشر المعروف في الناس يحمده^(١)

وقال أخبرني عن قوله تعالى: "خمصة". قال: "مجاة" أما سمعت قول الأعرابي^(٢):

تبيتون في المشاء مألئ بطونكم وجاراتكم سغب يثن خمائصا

وسئل ابن عباس عن قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق". قال: تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم فظيع يحتاج إلى الجدة ومقاساة الشدة: (شمر عن ساقك)، فهو تعبير عربي أصيل، أما سمعت القائل:

سن لنا قومك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

وأنشد أبو عبيدة:

فإن شمرت لك عن ساقها فصدقها ربيع ولا تسأم

وقال جرير:

ألا رب ساهي الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمراً

على هذا الأساس فهم ابن عباس - وهو ترجمان القرآن - الآيات، وتبعه العلماء من الصحابة والتابعين، وما نعرف إلا هذا التفسير للوحي الكريم^(٣) وسئل عن

(١) ذاته ص ٢١٤.

(٢) ذاته ص ٢٢٧.

(٣) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ محمد الغزالي ص ١٢٦ دار الشروق سنة ١٤٠٩ هـ سنة ١٩٨٩ م الأولى.

قوله تعالى: "لا فيها غولٌ"، قال: ليس فيها تنن، ولا كراهية كخمر الدنيا، أما سمعتم قول امرئ القيس:

رب كأس شربت لا غول فيها وسقيت النديم منها مزاجاً^(١)

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "فيطمع الذى فى قلبه مرض". قال: الفجور والزنا. قال وهل تعرف العرب ذلك؟، قال: أما سمعت قول الأعشى:

حافظ للفرج راض بالتقى ليس ممن قلبه فيه مرض^(٢)

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "أغنى وأقنى". قال: أغنى من الفقر، وأقنى من الغنى، أما سمعت قول عنتره العبسى:

فاقنى حياءك - لا أبالك - واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل^(٣)

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "لتنوء بالعصبة"، قال: (لتثقل)، أما سمعت قول امرئ القيس:

تمشى فتثقلها عجيزتها مشى الضعيف ينوء بالوسق^(٤)

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "جابوا الصخر"، قال: نقبوا الحجارة فى الجبال، فاتخذوها بيوتاً، أما سمعت قول أمية^(٥):

وشق أبصارنا كيما نعيش بها وجاب للسمع أصماخاً وآذانا

إلى غير ذلك من المسائل التى يعج بها الكتاب، فراجعه إن شئت.

* * *

(١) الإتيقان ١ / ٢١٠ مطابع دار الشعب بالقاهرة.

(٢) ذاته.

(٣) الإتيقان فى علوم القرآن للسيوطى ١ / ٢٢٤.

(٤) ذاته ص ٢٢٥.

(٥) ذاته ص ٢٢٦. والشعر بين الرواية والتدوين للمؤلف ص ١٠٤. الطبعة الثانية مطبعة الأمانة.

فى الغزل.. لىسان بن ثابت - رضى الله عنه

اللى نفحة ربانية لا يكاد يخلو من تنسمها إنسان، وأجل ما فى اللب أن يكون متبادلاً، والمأساة فىه ألا يودَّك مَنْ تهواه كقول الشاعر:

جنناً بللى وهى جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة ما نريدها

فحب الجمال غريزة فى الإنسان، ومن طبائع البشر فهو نجوى الروح، وحديث القلب، والحب يشدُّ النفس ويهذب الروح، ويجعل الإنسان رقيق المشاعر، مرهف الحسّ، ولذلك كانت صفة اللب من صفات المؤمنين الأتقياء والمسلمين الأصفياء، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

فاللب من شيمة البشر، يستوى فى ذلك العالم والجاهل والصالح والطالح. ولذلك ترى الشاعر "لسان بن ثابت" رضى الله عنه وهو من الشعراء المخضرمين، الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام وإن كان شعره قد جاء قليلاً فى الغزل حتى فى جاهليته.. لكنه ما زال يتغزل ويذكر الأحبة والأيام الخوالى، وما يعتاده من شوق وحنين، فهل كان "لسان" صادقاً فى هذا؟! على الرغم من شيخوخته وتقدم سنه، وهل كان يحسّ بحرارة العاطفة فى هذه السن؟ إنه لا أحد يستطيع أن يحكم على كبار السن بموت القلب أو العاطفة، مادامت الحياة فيها متسع لذلك، فكمن من

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.

حب وذكریات لهؤلاء الشیوخ لآیام الهوى والعشق والغرام ومرح الشباب "ظلت هذه الذکریات تطوّح بقلوبهم، وتعصف بأرواحهم حتى واراھم التراب، وكذلك كان سیدنا "حسان بن ثابت" رضى الله عنه - فإن الدارس لشعره یجد فی بعض غزله الإسلامی أثار ذلك الحب الدفین شاخصة، ومائلة أمام عینک، كما أن الدارس لشعره یحسّ ویشعر بما یخالطه من متعة حین یسترجع أطيافه، ویتملى صورہ، كما تلمح فی بعض شعره الآخر غزلاً تقلیداً یسوقه فی مطالع شعره، وتلك عادة لديهم جمیعاً فی العصر الجاهلی حثّ إنهم كانوا یستهلون قصائدهم بالغزل، والوقوف على الأطلال، والدّمن البوالی، حتى ولو لم تكن لأحدهم محبوبة وذلك من بناء القصيدة الجاهلیة، "فحسان بن ثابت" رضى الله عنه یرى على هذا المنهج الجاهلی، مع التخلی عن ذکر المشاهد والدیار الدّارسة، التی كانت تتردد فی شعره الجاهلی من مثل قوله:

انظر خلیلی ببطن جلق هل تؤنس دون البقاء من أحد
من دون بصری وخلفها جبل الثلج علیه السحاب كالقدر^(١)

وهو فیہ أيضاً یتبع الطریقة الشائعة یوم ذاك فی عصره حین یقتضب حدیث الغزل، منتقلاً منه إلى غرضه الأصلی بقوله: "دع ذا"، "دع عنك ذا"، "دع ذكری دار" وغير ذلك.

أما أثر الشیخوخة فظهر جلیّاً فی قلة ما صار إليه ذلك الغزل من صدق العاطفة وطول النفس.

النص..

تبلت فؤادک فی المنام خریدة تسقى الضجیج ببارد بسام
کالمسک تخالطه بماء سحابة أو عاتق کدم الذبیح مدام

(١) الديوان ص ١٣١.

نفج الحقيبة بوصها متنضد بلهاء غير وشيكة الأقسام
 بنيت على قطن أجم كأنه فضلاً إذا قعدت مذاك رخام
 وتكاد تكسل أن تجئ فراشها فى لين خرعة وحسن قوام
 أما النهار فما أفر ذكرها والليل توزعنى بها أحلامى
 أقسمت أنساها وأترك ذكرها حتى تغيب فى الضريح عظامى

فانظر كيف ترى الجمال فى قوله حين يتحدث عن محبوبته بقوله:

"الدرة المكنونة، الحسناء، الخفيضة الصوت"

والتي أورثته سقماً حين زارته فى المنام، والتي تسقى الضجيج ريقاً بارداً من
 ثغرها البسام وهو كالمسك مخلوطاً بباء الساء، أو الخمر المعتقة الحمراء.. ومع ذلك
 فهى ضخمة الأرداف، سادة لا تصرع إلى الأقسام، ثم نراه يشبهها إذا ما قعدت
 متخففة من ثيابها وقد اكتنز لحماً وشحماً مع استدارته ونعومته بمداك يسحق فيه
 الطيب.

- من الرخام كسول رخصة، وبيضاء جميلة فى اعتدال القوام وحسنه وجماله،
 وهو لا يفتر عن ذكرها نهاراً فإذا ما جن ليله أغرته بها الأحلام، وقد أقسم ألا
 ينساها، ولا يترك ذكرها حتى تغيب فى القبر عظامه.

وتحضرنى هنا طرفة من الطرائف وردت فى شأن هذه الأبيات وهى: قيل إن
 معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - وصلته وشاية من الوشايات وهى "أن عبد
 الله بن عباس - رضى الله عنهما - يشرب ويسمع الغناء!! فذهب إليه على غير موعد
 معه ثم دخل داره دون إذن منه حتى إذا ما دخل داره وجد جارية له تصرح بالغناء
 وهو يهز رأسه طرباً، ويده كأس الشراب فصاح به "معاوية" قائلاً له: "ما هذا
 الذى أراه يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال وما أنكرت مما تراه؟
 قال: أسمع الغناء؟ قال إنها جاريتى وتغنينى وحدى، قال: وما اهتزاز الرأس هذا؟
 قال: أريحية أجدها عند سماع الشعر، فقال معاوية: وأى شعر تسمعه "تبلت فؤادك

بالمنام خريدة "قال أتدرى شعر مَنْ هذا؟ وفي أى يوم قاله إنه شعر "حسان من ثابت. - رضى الله عنه - وشاعر الرسول عليه السلام - وقد قاله يوم بدر.

قال: وما هذا الذى فى يديك؟ قال خذ فاشرب تعرف إنه عسل ممزوج بكافور، قال: معاوية: وذلك ظنى بك يا عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم اعتذر "معاوية" وانصرف.

وقد وجه "حسان بن ثابت - رضى الله عنه - اهتمامه البالغ بوصف محاسنها الجسدية وأتى فى هذا الوصف بما لم يكن مألوفاً لديه فى قبل.

وإذا ما نظرنا بعين فاحصة، وبصر ثاقب، وذهن متقد، ودراسة متأنية لألفاظ ومعانى "حسان" فى الجاهلية والإسلام ترى أنه لم يأت بجديد فقوله فى بدر " يصف الريق والفم.

تسقى الضجيج ببارد بسام	تبلت فؤادك فى المنام خريدة
أوعاتق كدم الذبيح مدام	كالمسك تخلطه بماء سحابة
يشبه قوله الجاهلى:	

فى رصف تحت ظلال الغمام	كان فاهاً ثغب بارد
من بيت رأس عتقت فى الختام	شجت بصهباء لها سورة
وقوله فى بدر أيضاً:	

والليل توزعنى بها أحلامى	أما النهار فما أفر ذكرها
قريب من قوله:	

تذهب صباحاً وترى فى المنام	جنية أرقنى طيفها
وقوله فى غزوة الطائف:	

تراعى غزالاً يرتعى بالخمائل	لها عين كحلاء المدامع مطفل
-----------------------------	----------------------------

من قوله الجاهلى:

مألفها السدر بتعفى برام
مقارب الخطو ضعيف البغام

هل هى إلا ظبية مطفل
تزجى غزالاً فاتراً طرقه

وقوله فى أحد:

رواكـد أمثال الحمام وقوع

فلم يبق إلا موقـد النار حوله

يلتقى بقوله:

ثلاث كأمثال الحمام جثم

خلاء المبادى ما به غير ركـد

والسبب فى ذلك أن البيئة والطبيعة الملهمة والتى يستمد منها الشاعر معانيه، ويلهم خياله الخصب لم تتغير، كما أن البيئة الاجتماعية لم تكـد تتأثر بما جاء به الإسلام فى هذه السرعة الخاطفة، أما الجوانب النفسية والعاطفية فى حياة الإنسان وهى الباعثة على التشبيب والغزل فإنها أقل من غيرها فى التحول، والتغير، وأنت تلمس هذا التشابه العاطفى فى "شعر حسان" رضى الله عنه - أكثر من غيره، حيث إنه لم يتأثر كثيراً بالنزعات الجاهلية.

ولذلك لا تجد فارقاً كبيراً بين غزله فى الجاهلية والإسلام ولعل الغزوات والحروب التى كان يعيش فيها المسلمون فينصرون على أعدائهم أضافت بعض القوة عليه، وأرجعته إلى الحياة المرححة الضاحكة، فتغنى بذلك مثلما يغنى أهل الحماسة والحب.

"حسان بن ثابت الأنصاري"

هو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، ويكنى أبا الوليد، وأبا الحسام وأبا عبد الرحمن، وهو من بنى النجار، ثم من الخزرج، ينتهي نسبه إلى قحطان، فهو إذاً يمني، ولد في يثرب، ولم يذكر أحد من الرواة الأخيار سنة مولده، ونشأ فيها.. فهو إذاً من أهل المدر، وعلى نشأته الحضرية، كان متأثراً بالحياة البدوية، ويظهر ذلك جلياً في شعره.. فتراه حينئذ فيه رقة الحضر، وحضرياً فيه خشونة البداوة، وقساوتها، وخاصة الشعر الذي أنشده في جاهليته، وأمه (الفريعة) بنت خنس من بنى النجار، والفريعة بالفاء والعين المهملتين مصغر (فرعه) بالتحريك، وهي القملة الكبيرة^(١).

وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (وأمه الفريعة ابنة خالد بن قيس بن لوزان بن عبدود بن ثعلبة بن الخزرج)، وهو جاهلي إسلامي متقدم في الإسلام، إلا أنه لم يشهد مع النبي - ﷺ - مشهداً، لأنه كان جباناً، وعلى أنه كان مشهوراً بجبنه، فلم يناصر الدين بسيفه، وإنما نصره بلسانه، وكانت له ناصية يسد لها ما بين عينيه، وكان يضرب بلسانه روثه أنفه من طوله، ويقول: ما يسرنى به مقول أحد من العرب، والله لو وضعته على شعر لحلقه، أو على صخر لفلقه، وعاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، وهو من المخضرمين. مات في خلافة معاوية سنة ٥٤ للهجرة، وكف بصره في آخر عمره.

(١) خزانة الأدب للبغدادى ج ١ ص ٢٢٧ وما بعدها تحقيق عبد السلام هارون ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م.

ولما صدع النبي - ﷺ - بدعوته لحقه أذى كثير من أهل مكة، فهاجر إلى المدينة. ولم يكف أعداؤه عن تعبيره وهجائه، فأذن لحسان بن ثابت أن يعارضهم بمثل قولهم، فكان يهجوهم بأقوال أشد عليهم من وقع النبل، ومدح محمداً - عليه الصلاة والسلام - بقصائد غراء، جاءت غاية في الحسن، والروعة والجمال، وكان يدلح لسانه ويقول: والله لو وضعت على شعر لحلقه، أو على صخر لفلقه، وله شعر كثير في المدح والفخر والوصف والثناء والهجاء، فمن قوله يفتخر:

ولقد يعلم من حاربنا أننا ننفع قدما ونضر
صير للموت إن حل بنا صادقوا البأس عضير فخر

ومن قوله يمدح الأنصار:

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم أو حاولوا النفع في أسياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرّها البدع

وكان حسان بن ثابت - رضى الله عنه - يفد على ملوك غسان بالشام، وكان يمتدحهم. ومن جيد شعره فيهم:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن جارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم يروى يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السداد المقبل

ولما سار (جبله بن الأيهم) إلى بلاد الروم، ورد على ملك الروم رسول معاوية فسأله جبله عن حسان، فقال له: شيخ كبير قد عمى، فدفع إليه ألف دينار، وقال ادفعها إلى حسان، قال: فلما قدمت المدينة، ودخلت مسجد رسول الله ﷺ، رأيت فيه حسان بن ثابت، فقلت له: صديقك (جبله) يقرأ عليك السلام. قال حسان: فهات ما معك، فقلت يا أبا الوليد كيف علمت؟ قال ما جاءتنى منه رسالة قط إلا ومعها شىء.

وولد لحسان - رضى الله عنه - عبد الرحمن بن حسان من أخت مارية القبطية:
أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ وكانت تسمى (سرين) وكان عبد الرحمن بن حسان
شاعراً، وكان له ابن يقال له (سعيد بن عبد الرحمن بن حسان) وكانت لحسان بنت
شاعرة. وأرق حسان ذات ليلة؛ فعَنَّ له الشعر، فقال:

متاريك أذئاب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتثنا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئاً يقوله وصعب عليه إنشاد الشعر بعد هذا البيت، فقالت
له ابنته كأنك قد أجبلت يا أبة؟! قال: أجل. قالت: فهل لك أن أجيز عنك؟. وقال:
وهل عندك ذلك؟. قالت: نعم. قال: فافعل. فقالت:

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا كرام يعاطون العشيرة سولها

فحمى الشيخ فقال:

وقافية مثل السنان رزئتها تناولت من جو السماء نزولها

فقالت:

يراها الذى لا ينطق الشعر عنده ويعجر عن أمثالها أن يقولها

وأتعرض ولد حسان، فلم يبق له عقب^(١).

ولما ظهر الإسلام، وهاجر النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى يثرب؛ أسلمت
الأوس والخزرج، وأسلم حسان، وعلى الرغم من أنه كان جباناً؛ فلم يناصر الدين

(١) راجع في ترجمته: الشعر والشعراء لابن فيه الدبورى ط ص ٢٢٣ وما بعدها وتوزيع دار الثقافة -
بيروت - لبنان سنة ١٩٦٤م وتاريخ الآداب العربية تحقيق الدكتور/ على نجيب عطوى المجلد
الأول ص ١٤٩ وما بعدها نشر مؤسسة عز الدين ط الأول ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م وطبقات ابن سلام
١٧٩ وما بعدها وشرح شواهد المعنى ١١٤ والأغاني ج ٤ ص ٢ وما بعدها والموشح ص ٦٠
ومعجم الشعراء للمرزبانى وتهذيب ابن حجر وتاريخ آداب اللغة العربية لكارل بروكلمان. ومقدمة
ديوانه ط دار صادر - بيروت - لبنان بدون تاريخ.

بسيفه، وإنما نصره بلسانه، وبذلك صار شاعر الرسول - ﷺ - وكان عليه الصلاة والسلام - يقول له: اهجهم وروح القدس معك، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يدلّه على معاييب القوم ومثالبهم، وعلى من ينبغى هجوها من النساء، شعر حسان فى الجاهلية أجود من شعره فى الإسلام يقول (الأصمعى): شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر، فقطع مثله الإسلام "وقيل لحسان" ألان شعرك أو هرم فى الإسلام يا أبا الحسام، فقال: يا ابن أخى إن الإسلام يحجز عن الكذب، أو يمنع الكذب، وإن الشعر يزينه الكذب، يعنى بذلك ما يدخل فى الشعر من المغالاة، وتجاوز الحقيقة، ومع هذا... فنحن نرى أن شعر حسان - رضى الله عنه - جاء قويا فى الإسلام، وكذلك استطاع أن يصور العصر الإسلامى زمن النبى - عليه الصلاة والسلام - والصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - أصدق تصوير، بما فيه من منازلة بين الإسلام والشرك، كما أنه يعطينا صورة واضحة عن تهاجى الأنصار والقريشيين، وعمّا فى هذا الهجاء من فحش وإقذاع، وهو لون جديد دخل بشعر حسان الآداب العربية، فنجد فيه ذلك اللون من الشعر السياسى المسنود إلى العقيدة، هو بذلك مهد الطريق إلى الشعر الإسلامى الذى ينافح عن العقيدة، وينصر الدعوة، ويدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق. يقول أبو عبيدة "فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى فى النبوة وشاعر اليمن كلها فى الإسلام، وشهد له الخطيئة فقال: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشهر العرب، حيث يقول:

يغشون حتى ما تهر كلابهم ولا يسألون عن السواد المقبل

كما شهد له النابغة فى الجاهلية. وقال له: إنك لشاعر. كل هذا يدل على أنه كان شاعرا فحلا مجيداً، يتصرف فى فنون الشعر، وقد عرفت ديباجته بنقاوتها وجزالتها، وسهولة ألفاظها، وقد أجمع الرواة على أنه أشعر أهل المدر.

يقول حسان بن ثابت يمدح النبى ﷺ، ويهجو أبا سفيان قبل إسلام يوم فتح مكة.

عَفَتَ ذَاتُ الْأَصَابِعِ ، فَالْجَوَاءُ
دِيَارَ مَنْ بَنَى الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ
وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْسٌ
فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ مِنْ لَطِيفٍ
لِشَعَثَاءِ التِّي قَدْ تِمَّتَتْ
كَأَنَّ سَيِّئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ
عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعْمُ غَضٍّ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا
نَوَّلِيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أَلْمَنَّا
وَنَشْرِبُهَا فَتَتْرَكُنَا مَلُوكًا
عَدَمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
يَبَارِينَ الْأَسْنَةَ مَصْعَدَاتٍ
تَظَلُّ جِيَاذُنَا مَتَمَطَّراتٍ
فَإِمَّا تَعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمِرْنَا
وِإِلَّا فَاصْبِرُوا لِحَلَاذِ يَوْمٍ
وَجِبْرِيلُ أَمِينُ اللَّهِ فِيْنَا
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
شَهِدْتُ بِهِ وَقَوْمِي صِدْقُهُ
وَقَالَ اللَّهُ : قَدْ سِيرْتُ جُنْدًا
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ
فَنَحْكُمُ بِالْقَوَافِي مِنْ هَجَانَا

إِلَى عِذْرَاءٍ مَنْزِلَهَا خَلَاءُ
تَعَفَّفِيهَا الرُّوَاسُ وَالسَّمَاءُ
خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعْمٌ وَشَاءُ
يُورِقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ
فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ
يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ
مِنَ التَّفَاحِ هَصْرُهُ الْجِنَاءُ
فَهَنَ لَطِيبُ الرِّاحِ الْفِدَاءُ
إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحَاءُ
وَأَسْدًا مَا يَنْهِنُنَا اللَّقَاءُ
تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كَدَاءُ
عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الْظَّمَاءُ
تَلْطِمُهُنَّ بِالْخَمْرِ النُّسَاءُ
وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ
يَعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَرَوْحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كَفَاءُ
يَقُولُ الْحَقُّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ
فَقُلْتُمْ : لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ !
هُمْ الْأَنْصَارُ عَرْضُهَا اللَّقَاءُ
سِبَاءُ أَوْ قِتَالُ أَوْ هِجَاءُ
وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ

ألا أبلغ أبا سفيان عنى
 بأن سيوفنا تركتك عبداً
 هجوت محمداً فأجبتُ عنه
 أتهجوه ولست له بكفء
 هجوت مباركا برا حنيفاً
 فمن يهجو رسول الله منكم
 فإن أبى ووالده وعرضى
 فإمّا تثقن بنى لوى
 أولئك معشرُ نصرُوا علينا
 وحلفُ الحارث ابنُ أبى ضرار
 لِسَانِي صَارِمٌ لا عيبَ فيه

فأنت مجوف نخبُ هواء
 وعبد الدارِ سادتها الإماء
 وعند الله فى ذاك الجزاء
 فشركما لخير كُما الفداء
 أمينَ الله شيمته الوفاء
 ويمدحه وينصره سواء
 لعرض محمد منكم وقاء
 جذيمة إن قتلهم شفاء
 ففى أظفارنا منهم دماء
 وحلف قريظة منا برأء
 وبحرى لا تكذره الدلاء^(١)

(١) الديوان ص ٧، ٨، ٩ دار صادر - بيروت لبنان. بدون تاريخ، وتهذيب سيرة ابن هشام - تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة التوعية الإسلامية ص ٢٩٥ وما بعدها. ط الثالث سنة ١٣٩٦ هـ سنة ١٩٧٦ م.